بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ الـرّحمنِ الـرّحيم مالِـك يَـومِ الـدينِ : يَـوْمَ يَقُـومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً . يَـوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُـورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَـانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الحمدُ لله حمدًا كثِيرًا طيّبًا مُباركًا فِيه كمـا يُحـبُّ ربّنـا ويرضَـى فِـي كـلّ لَمحةٍ ونفسٍ عدد خلقِه ورِضاء نفسِه وزِنة عرشِه ومَـداد كلماتِـه كلمّـا ذكـره الذاكِـرونَ وغفـلَ عن ذكره الغافلـون ، مـلْءَ السَّمواتِ ومـلْءَ الأرضِ ومـلْءَ ما بيْنهما حمدًا يوافِي نِعمَهُ ويُكافِئُ مزيدَهُ .

الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الْمَحْمُـودِ بِآلائِـهِ ونعمائـه ، المَحمـودِ علَـى مَنَحِـهِ ومَنعِـهِ ، المَحمودِ علَى بَسطِه وقَبضِه ، المحمودِ على جميعِ أمرِه ، الْمَعْبُودِ فِي أَرْضِـهِ وَسَمَائِهِ وجميع كونِه .

الحمدُ للهِ أَفْضَلَ الْحَمْدِ وَأَعْلاهُ وأشرفَه وأَسناه ، وَغَايَةَ الْحَمْدِ وَمُنْتَهَاهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الوافِرةِ الْمُتَرَادِفَةِ على مـدَى الإيـام ، الْمُتَـوَاتِرَةِ علَـى جميعِ الأنامِ ، التي يعجزُ العالمـون عن إحصائها فكيفَ بشكـرها .؟! ، هُـو المتفضِّـلُ علَى جَمِيـعِ خلقِـه ، ما خلقَهَـم إلا لِيعبُـدُوه ، فيُجـري عَلَيْهِـم مَـا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سِمِعَتْ ، ولا خطر على قلب أحـدٍ مِـنهُم ، تفضـلاً منه ورحمة ، لا بسبب من عبادتهم له ، سُبْحانَه وتعَالَى جدُّهُ يأمرُنا بمـا هُـو

خيرٌ لنا ، وينهانا عمَّا هُو يَضُرّنا في مسيرنا في دُنيانا ويَضرّنا فِي مَصِيرنا فِي أُخرانا ، فإنا عَبيدُه وهُو ربُّنا المتفضّل عَلينا . لَه الحَمْدُ حتّى يَرضَى ، ولـه الحَمدُ كلُّ الحمدِ إذا ما رَضِيَ بنا عبيدًا وأعاننا فكنَّا له عابدين ، ورضيَ عنَّا فقَبِلَنا وأقبلَ علينا إقبالَ الحبيب عَلَى حَبِيبه .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٣)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ (الصف:٩-١٤)

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ أجمعين وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللهمّ صَلّ وسَلم وبارك على عبدِك ونبيّك ورسُولِك سيّدنا مُحمّدٍ وعلى آلِه وصَحبه وأزواجِه وذريتِه وورثَتِه من أهلِ العلم وأُمّتِه أجمعين عددَ خلقِك ورضاء نفسِك وزِنةَ عرشِك ومَدَاد كلماتِك صلاة تنيرُ بها قلوبنا في مَسِيرنا وتُنيرُ بِها قبورَنا في مَصيرنا ، وتُصَحِّحُ بها نيّتنا وتُطَهِّرُ بها نفوسَنا مِن كلِّ ما لا يُرضِيك ، ومِن كلّ ما يَشغلُنا عَن القِيامِ بِحقّك عَليْنا ، صَلاةً تَضبطُ يا مَولانا بِسببها كلّ حركتِنا ظاهرةَ وباطنة ضبطًا يُرضيك عنّا ، فتقبلنا ، وتُقبِلُ عليْنا بِرضوانك وإحسانك الذي لا يتناهى إقبالَ الحبيبِ على حبيبِه .

إلهنا وإلهَ كلِّ شيْءٍ أنت ربّ العالمين وأنا عبدُك وابن عبدِك وابن أمتكَ ناصِيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمُك ، عدلٌ فيّ قضَاؤك ، وأنا بفضلك وتوفيقك وحولِك وقوتك على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ ، أعوذُ بك مِن شرِّ ما صَنعتُ ، وأبوءُ بذنبي ، فاغفرْ لِي ، فإنّه لا يَغفرُ الذُّنوبَ إلاّ أنتَ .

وارفعْ بالقُرآن العظيمِ ذِكري بيْن عبادِك الصّالحين فِي الدّنيا والآخرةِ ، واسترِني وأهلَ بيتي وذريّتي وكلَّ من رأت عينِي من عِبادك المسلمين سَترًا لا يَنكشِفُ لأحدٍ أبدًا في الدّنيا والآخرةِ ، وهَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، واجعل كلمتي نورًا تهدي به من تحب إلى ما تُحب ، وسيفًا يجتزّ رقاب من تسخط من أحفاد أبي لهب .

وَاجْعَل لي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي ووالديّ وأهل بيتي وأشياخِي وأصحابِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ الفردوسِ العظيم مع سيد المرسلين والعَالَمين أجمعينَ عبدِك ونبيّك ورسُولك سيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم

* * *

أمّا بَعد حمدِ الله تعالى والثناءِ عليه والصّلاةِ والسَّلام على نبيِّهِ سَيّدنا مُحمَّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فإنّ من فضلِ الله سبحانَهُ وتعالَى بعبادِه المسلمين عامَّةً ، وبطلابِ العلمِ منهم خاصّة أن يسّر لهم طريقُ الأخذ ممّا اكتنزَه في كتابِه العظيم الذي أنزلَه على عبدِه ونبيّه ورسُولِه سَيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنبأهم بذلك في سورة (القمر) قائلاً سُبحانَه وتَعَالَى : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) مكرّرًا هذا في السُّورةِ نفسِها

* * *

والذِّكر الذي يسّر الله عزّ وعلا القرآن له إنّما رَأسُه تيسيرُ تلاوتِه وتدبرِه وتيسِيرُ العملِ بِه . وقد قيّضَ اللهُ تعالى لتعلِيم تلاوتِه وترتيلِه ثلّة من أهلِ القُرآن احتشدوا محتفلين ومتعاونين في هذا ، وقيضَ ثَلّةَ أخرَى لتعلِيم تدبّرِه واستنباطِ ما هو مكنوز فيه من معانِي الهُدى دقيقها وجليلِها كلٌّ على قدرِ ما يُطيقُ وما يملك من أدواتِ التّلقّى . وكلٌّ بمقدار ما يتسعُ وعاؤه ـ وَوِعاءُ طالبِ العلمِ قلبُه ـ وكلّ على قدرِ طهارةِ ذلكِ الوعاء ، فإنّ الكريم في دنيا النَّاسِ لا يمنحُ عطاياه لمن لم يكن وعاؤه نظيفًا طاهرًا .

ومن لم يكن قلبُه طاهرًا من أدنى الشرك تعطّل عن أن يسمع . وتعطّلُ القلبِ عن أن يسمعَ هو تعطله عن القيامِ بوظيفته الّتي خلقَ لها ، ومن أشد ما يلحقُ هذا بالقلبِ الغفلةُ عن ذكرِ الله تعالى ومراقبته ، والانهماك في المعصية ، فإذا ما وُقيَ ذلك كان أهلاً لأن تَتَوافدَ عليه ضُروبُ الفهمُ ، وتَتَرادَف فنونُه . ﴿ **إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنفال:٧٠)

فالقلبُ المعافَى من داءِ الغفلة وَالشهوة والشبهة والتلذذ بالمعصية هو المهيئ للتلقّي ، وقد أنبأنا أهلُ المعرفةِ بالطريقِ إلى الله تعالى أنّه « لَو

أُعطِي العبدُ بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه ؛ لأنه كـلام الله ، وكـلامه صفته ، وكما أن ليس لله نهاية ، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه»[1].

وكلام الله غير مخلوق ، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة .

والله تعالى من بعد أن يُقسمَ على هذه النّعمة التي يُبصرها كلُّ ذي عين ويسمعها كلُّ ذِي أُذنٍ آمن بالقرآن أو لم يؤمن ، يحثّنا على التّذكر ، قائلا : ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)

وكلّ الَّذِي بَسطتُ لَكَ القَولَ فيه بَيانٌ عمَّا يُؤهّلُك لأَنْ تَسلُكَ السَّبيلَ القويمَ إلى الفهمِ عنِ الله تعالى ، وبيانٌ لِما يُعيقُك ، فلا تدخلُ علَى ربّك سُبحانَه وتعَالى .

ونزولاً على ما دعَا إلَيْه اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى رغبتُ فِي أن يكونَ لي مِن هذا نصيبٌ أتقرّبُ بِه إلَى الله تعالى ، لعلّه يَرضَى . فآثرتُ أن أعملَ على تثويرِ بعضِ معانِي الهُدي في سُورةٍ من أوائل السُّورِ التي نزلتْ في صدر الدّعوةِ: سُورة «المسد»

* * *

وجهُ اصطِفاءِ النّظرِ في تَأويلِ منهج الإبانةِ في سُورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ)

حرَصتُ عَلَى أن أتخذَها أنموذجًا لبيانِ مَدَى أثر مقصدِ السّورة التَّربويّ التَّثقيفِيّ للنَّفسِ الإنسانيّة وموضُوعها في اصطِفَاءِ منَهجِ الإبانةِ ، والأَساليبِ الَّتي تُحقّقُ ذَلِكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِن الأهميَّةِ الاجتِماعِيَّةِ للمعرِفة العلميّةِ بِما هُو

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ، للواحدي (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق مجموعة من الباحثين ، في جامعة الإمام ، عمادة البحث العلمي ، بالرياض ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، ٤٢٨/١

مَكنونٌ فِيها مِن مَعاني الهدى الّتي يفتقرُ إليها جمَهـرةُ المسـلمين في عصـرنا هذا ، فَإنَّ لِلنظرِ فيها الآن أهميّةً اِجتماعِيّةً تصطَحبُ الأهميّـةَ العِلميَّـةَ لِلنظـرِ فيِها وَفقَ هذا المنهجِ .

هذه الأهمية الاجتماعيةُ تتمثّل في أُمور :

الأوّل : أنـّها سُورةٌ تُبين عن مصيرِ من كان جامعًا بيْن الكفران بالله تعـالى وصدّ الناسِ عنه سبْحانه وتعالى ، والسّعي الحثيثِ إلى إقامة العوائقِ والكُدَى في طـريقِ الدَّعوة ، ثمَّ إلى ذلك كلّه التجـرّدُ من كل معنًى آدميّ ، وذلـك ما يُنادي عليْه حالُ أبي لهبٍ مع النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فِي الأسواق ، فقد كانَ يلازُمُه ، ويتفَرّغُ لتفريقِ النّاسِ عنه ، وهـو فَـوقَ هـذا فارقَ بني هاشم جميعًا وانحازَ إلى قريشٍ في حصـارها رسـول الله صَـلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في شِعب بني هاشِمٍ ، ولم يبق مِن بَنـي هاشـمٍ غيرُ أبي لهبٍ وولده يناصرون المقاطعة الاقتصاديّة والاجتماعيّة . (١)

مثلُ هذا الذي كان من أبي لهبٍ منذ خمسة عشر قرنًا أنت واجِدٌ نظيرَه وفوقَه من ثُلّة (شلة) يتكلمون بلساننا ويعيشون على أرضِ الإسلامِ ، ويكيدون لأهله ولوطنِهِ ، ويناصرون أعداءَه ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ (النحل:١٠٧)

﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ (التوبة:٣٢)

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٢/٢ ، ومعه كتاب الرَّوض الأنف في شرح السيرة النبويـة لابـن هشام . تأليف : السهيليّ (ت:٥٨١هـ) تحقيق : عمـر السـلامي ، دار إحيـاء الـتراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ ، ٣٨/٤

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(الصف:٨)

والثانِي : أنَّها سُورةٌ تُبينُ عن الأثر السَّيئ المُدمِّر للمرأة في زوجِها وأهلِ بيتِها وفي أمّتِها ممَّا يستوجبُ حُسنَ البَصرِ بحال أمثال هذِهِ المرأةِ المُدمّرةِ ما حولَها،وهنّ اليوم في بعضِ الأوطانِ العربيَّةِ والإسلامِيّة غيرُ قليل.

والثّالثُ : أنَّك ترَى احتفال حفنةٌ من سَحرةِ إبليس الذين مَردُوا على الكذب وإشاعة الفتنة والفاحشةِ وثلة من العلمانيين وفرقةٌ من الماسُونيين كَلِفُوا بالمبالغةِ في تثويرِ الدَّعوةِ إلى ما يُسمّى بتحريرِ المرأةِ ، وما ذلك إلا لمطامع في نفُوسِهم الخربة .

إنَّ تحرير المرأة حقٌّ لها علَى غيرِها ، وحقٌّ لها علَى نفسِها . فريضةٌ عليْها أن تحوزَه وأنْ تَعضّ عليْه بِنواجِذِها شَريطةَ أن يُفهمَ تحريرُها فهمًا موضُوعيًّا صوابًا ، وشَريطَةَ أن يُحرَّر مَدلولُ مُصطَلحِ التّحرُّر ، وشَريطةَ أن يُعيَّن ما الذي يرادُ أَن يُتحرّرَ مِنه ، وبأيِّ سبيل يكونُ التَّحرّرُ .

ذلك أمرٌ مُهمٌّ كمثلِ أهميّةِ تحقيقِ تَحرير المرأةِ ، لأنّ تحريرَها على وفق الكتابِ والسُّنة هُو جُزءٌ مِن الاستجابةِ لهديِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حين دعَا أُمَّتَهُ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ».

فَمِن حُسنِ الاستيصاء تحريرُها ممَّا يُخرجُها عَن عِزّها وكرامَتِها ، وهَذا لا يكونُ إلاَّ بالالتزامِ بما جاء بِه بيانُ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّة ، ولا يَكونُ إلاّ ببيانِ ما يمُكنُ أن يخرجَها مِن هذا ، فيجعلَها على منِهاج أمِّ جميل ، أداةَ تَدمير زَوجِها وأهلِها . ثُمَّ لِنفسها .

وعُظم ما حولنا يَسعَى إلى إحالة المرأة أمَّ جميل ، وإحالة كلّ زوج إلى أبي لهبٍ ، وهذا لن يكون أبدًا ـ إن شاء الله تعالى ـ ما دام في صُدورنا نفسٌ

يتردّدُ ، وإن فعلوا بقـوتهم وطغيانهم وقوانينهم الجـائرة الفاجـرة وفسوقهم ما فعلوا .

المهمُّ أنّنا الآن أحوجُ ما نكونُ إلى أن نُبينَ عن الأثر السُّوء المُدمِّر لِجعلّ أم جميل المرأة المثالية في مجتمعنا .

* * *

وهنالك باعثٌ متعلـقٌ بـالنَّظرِ البَلاغِـيّ في بيـانِ الـوحيِ يتمثّـلُ في إبـرازِ القِيمةِ الاجتماعيّةِ للتفكير البلاغيّ ، ولاسيّما فِي عصرِنا هـذا الّـذِي يُـرادُ أن يُـربطَ فِيـه البحـثُ العِلمـيّ بشـقيه : الإنسـانيّ والتجـريبيّ (العملـي) بحاجـةِ المجتمعِ ، فيكونُ في خِدمتِهِ وتحقِيقِ تقدّمِه ليكون العلم نافِعًـا صـانِعه ومَـن صُنِع له ، فالإسلام لا يعرفُ مبدأ العلمِ للعلمِ والأدبِ للأدب ، بلْ كلّ شـيْءٍ لِغايةٍ أسمى .

التفكيرُ البلاغيّ ليست غايته الرئيسة التي يُرمـى إلَيْهـا الاسـتمتاعَ الأجـرد بفيوض الجمالِ اللّسانيّ والعقليّ ، مع أن هذا الاسـتمتاعَ في نفسِـه ذو قيمـة تثقيفية ترويضيّة للنَّفسِ الإنسانيّة ، لِما فُطرت عليْه النفسُ الإنسانيةُ مِن محبّةٍ للجمال في جوانبِ الحياةِ كلّها محسُوسِها ومعقُولِهـا ، إلاَّ أنّ تبصـرَ سِـماتِ الجمـالِ في تَفـنُّنِ اللّسـانِ في الإبانَـةِ عَـن مكنـونِ الصّـدورِ هـو ضـربٌ مـن الإحسانِ في تربيةِ النَّفسِ وإعدادها للقيامِ بما خلقتْ له من تعميرِ الحياةِ مـن جهة ، والإخباتِ لله سبْحانَه وتَعالَى من جِهةٍ أخرى .

والتفكيرُ البلاغي في البيانِ العَليّ المعجزِ : بيانِ الوحيِ قُرآنًا وسُنّة ، وفِي البيانِ العالِي البديعِ : بيانِ الإبداعِ الإنسانيّ شِعرًا ونثرًا هو الذي يمنحُ الـنَّفسَ الإنسانيّةَ فيضًا ممَّا يُثوِّرُ عزيمتَها على الفعلِ الخالقِ ، وعلى أن تُعلِي الحيـاةِ في سبيلِ اللهِ تعالى على الموتِ في سبيلِ اللهِ ، فالله عَزّ وعَلا خلقنا لِنحيا في سبيلِه ، لا لأن نموتَ في سبيلِه كما يحسبُ غيرُ قليلٍ .

هو جَلّ جلالُه ما شرعَ لنا الموت في سبيلِه إيمانًا واحتسابًا إلا إذا تعـذَّرَ علينا أن نحيا في سبيلِه إيمانًا واحتسـابًا ، فحثَّنـا علـى أن نمـوتَ في سـبيلِه تعالى ليتحققَ لغيرِنا الحياةُ في سبيله تعالى ، فيكون موتنا هذا سببًا في تلك الحياة في سَبيلِ الله تعالى العامرة للأرض بطاعة الله جلّ جلالُه .

التَّفكيرُ البلاغيّ في بيانِ الـوحيِ قُرآنًـا وَسُـنّةً يَطمَـحُ فِيمـا يَطمَـح إلى أَن يَعملَ علَى تحقِيقِ شيْءٍ بَالِغٍ مِن هَذَا التّنـويرِ النَّفسِـيِّ لِلحيـاةِ فِـي سَـبيلِ اللهِ تَعالَى ، وَتَعمِير هَذِهِ الحياةِ .

وَهذَا يُحقَّقُ مِن زاوِيَتَيْنِ :

زَاوِيَةِ التبَصُّرِ في منهجِ بيانِ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّةً في إفهامنا حقيقـةَ النَّمـاذج المُثلَـى لمـن قـاموا بتحقيـقِ الحيـاةِ في سَـبيلِ اللهِ سـبحانَه وتعـالى ، وإعانَـةِ الآخرينَ علَى ذلِك ، ومنهـجَ تلك النمـاذجِ وأدواتهـم التِـي اتَّخـذُوها لإنفـاذِ ذَلِكَ .

وزَاوِيةَ التّبصُّرِ في مَنهج بَيَانِ الوَحيِ قُرآنًا وسُنّةً وفِي إفهامِنا نمـاذجَ مِمّـن اتَّخَذُوا الإفسـادَ في الأرضِ وإدارةَ الإفسـادِ فِيهـا وَرِعايـةَ سَـدَنَتِهِ رسَـالةَ حيـاةٍ والتّبصُّرِ في مَنهجه فِي إفهامِنا منهجَهم في هذا وإفهامنا الأدوات الَّتِي مارسُوا بها هذا الإفسادِ حتّى نكونَ علَى بصِيرةٍ بهم ، فلا نُخـدعُ بِمعسُـولِ ألسـنتهم ، ولا نبهرُ بما ينشرُونَه من حَولِنا مِن مغرياتٍ تزلّ فيها القدَمُ ، فـلا تكـونُ إلا الحالقةُ الحارقةُ .

التفكيرُ البلاغيّ في بيان الوحي مَهمومٌ ـ عند أهل البصيرةِ النافذةِ ـ بذلك ، أو ينبغِي أن يكون كذلك . وهذا مأمٌ جليلٌ ، وحمـلٌ ثقيـلٌ لا يوفِيـه بعـضَ حقّه إلا رجالٌ صَدقُوا ما عاهدُوا الله تعالى عليْه .

ونحنُ هنا بصددِ النّظرِ في الزّاويةِ الثانيـة ، فـإنّ التّخليَـة تسـبِقُ التّحلِيـة ، فنغدو إلى التّبصّرِ في إبانةِ الوحيِ وتصويرِه نموذجًا من أكابرِ أهـلِ الإفسـادِ في الأرضِ ومن أكابِرِ الصّدِ عن سبيلِ الله تعالى ، كيما ندركَ حالَه مَسيرًا في الأرضِ وحالَهُ مصيرًا يَومَ العرضِ ، فلا نكون قط من أحفادِه ، ولا نكونُ قـطُّ مِن مُهادِنِيهم أو منْ مُداهِنِيهم ، وإنْ عَلَتْ أصواتُهم ، فأزعَجَت القُلوبَ ، وإنْ علتْ سياطهم فأدمَتْ الظُّهورَ .

* * *

عمودُ المنهج : يقُوم مِنهاجُ النّظـرِ هنـا علـى الجمـعِ بيْن خاصيّةِ مـنهج البحثِ العلمي (الاستقرائيّ المقابل للمنهج الاستدلاليّ) وخاصّيةِ منهج قراءة النّصّ (المنهج البياني) [1]

---

(١) يضع عبدُ القاهرِ لنا في كتابيه «أسرارِ البلاغة» و«دلائل الإعجاز» نصين جليلين يخلصان لنا عمود منهج البحثِ العلمي ، ومنهج قراءة البيان .يقُول :

«واعلمْ أنَّ غرضِي فِي هـذا الكـلامِ الّـذِي ابتَدأتُـه ، والأسـاسِ الّـذي وضـعتُه ، أن أتوصّلَ إلى بيانِ أمرِ المعَانِي كيف تختلفُ وتتَّفقُ ، ومِن أين تجتمِعُ وتفترِقُ وأفصّلَ أجناسَـها وأنْواعَهـا ، وأتتبّـع خاصّـها ومُشَـاعَها ، وأبـيّن أحوالَهـا في كَـرَمِ مَنْصِبِها مِن العقلِ ، وتمكُّنَها في نِصَابِهِ ، وقُرْبِ رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسـبُ عَنهُ ، وكَوْنِها كالحَلِيفِ الجارِي مَجرَى النَّسَبَ، أو الزَّنِيمِ المُلصَق بالقوم لا يقبلونَه، ولا يمتعضونَ له ولا يَذُبُّون دونه»

(أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه : محمـود محمد شاكر ، ط : مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ص ٢٦)

ويقُول في «الدلائل»:

«وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ «النظْمِ» على مَعاني النَّحو ، وعلى الوجُـوهِ والفُـروقِ الّتي مِن شأْنها أَنْ تكونَ فيه ، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايـةٌ تقـفُ عندها ، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازديادًا بَعْدها . ==

ومن ثَم فإنّي أعمَدُ هنا إلى النَّظرِ في سُورةِ (المسد) مستبصِرًا ما اتخذته السُّورة مِن أَساليبِ الإبانةِ عمَّا هُو مكنونٌ فيها مِنْ معاني الهُدَى ، وعلاقةِ ذلك بمقصُودِها الّذي تهدِي كلُّ معانِيها الكُلّيّةِ والجُزئيّة إليْهِ . وعلاقتها بمعانِي الهدَى في سورٍ أخرى تُجاورها أو تقابلها موقِعًا ووظيفةً في نسقِ التِّلاوةِ

* * *

عمود منهج الإبانة عما أريدُ من تثويرِه من معاني الهدى :

إنِّي لأَعلَمُ عِلمَ يقين أنَّ لِمنهجِ البحثِ العِلميّ أسلوبًا يَتّسِمُ بالدّقةِ والاقتصادِ اللغويّ . ويبتعدُ عن المجازاتِ والخطابيةِ التأثيريّةِ . ويبتعدُ عن توجيهِ الخطابِ للقارئ . ويبتعدُ عن التوجُّهِ إلى استفزازِ المشاعر . ويبتعدُ عن استعمالِ أساليبِ التوكيدِ . ويبتعدُ عن الاستطرادِ ، وعن إثقال الهوامشِ

== ثم اعْلَمْ أنْ ليست المَزيّةُ بِواجبة لَها في أنْفُسِها ، ومِنْ حيثُ هِيَ عَلَى الإطلاق ، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ».

دلائل الإعجاز لعبد القاهر قرأه وعلق عليه محمود شاكر ، ط٣ ، سنة ١٤١٣هـ ، دار المدني بجدة ، ص ٨٧

هذه الثّلاثة التي عيّنها عبدُ القاهرِ مثابةً لتحقّقُ المزيّة لأي خصُوصية تركيبية :

« المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ»

« موقعِ بعضِها من بعضٍ»

« استعمالِ بعضِها معَ بعضٍ».

ممّا قلّ اعتناءُ غيرِ قليلٍ مِن طلابِ العلم ببلاغةِ العربيّةِ عامّة ، وبلاغَة بيانِ الوحي قُرآنًا وَسُنّة خَاصّةً بالوفاءِ ببعضِ حقّهِ ، فهمًا وتطبيقًا وهو أمرٌجديرٌ بحسن تبيِنه تصورًا نظريًّا وتطبيقه ممارسَةً تأويليةِ .

بالتعليقاتِ . ويبتعدُ عن كلّ ما يُمكن أن يستغنَى عَنه ويبقَى أصلُ المعنَى قائمًا .

أعلمُ بِحقٍّ ذلك ، ولكنَّ الذي بيْن يديك ما هُو بِبحثٍ علميّ ، ومَا لِذلك قمتُ وفزِعتُ .

هذا كتابٌ يقوم إلى أن يثوّرَ معانِي الهُدَى فِي سُورةِ «المسد» وأن يُوصلها إلى قلب القارئ ، وأنْ يقيمَها فيه ، ويوطنَها ، وأنْ يملأَهُ بها ، فتفعلَ فيه ما يحملُه على أَن يفعلَ بما فِيها مِن الهدى .

كتابٌ يسعَى إلى أنْ يرسُمَ لك صورةَ أبي لهبٍ وامرأتِه مسيرًا ومصيرًا ، كما جاءت بِه سُورة «المسد» حتَّى تَفرَّ أنت ومن حولك مِن أبي لهبٍ وامرأتهِ ، فلا تكونوا من أحفادِهما ، فإنَّ أحفادَهما يتكاثرون تكاثُرَ الجرادِ .

ومن ثَم حملتُ نفسِي حملاً على أن أسلُكَ أسلوبًا آخر غيرَ ما يُلزمني بِه أدبُ البحث العلمي في الإبَانَةِ عَن المَعَانِي[1].

حملتُ نفسي علَى أن أسعَى إلى تثويرِ المعاني وتمكينِها وتكثيرِها وتفعِيلِها ، وأن استطردَ حين أرَى أنَّ الاستطرادَ سيُعينُ علَى الوُصول بالقارئ إلى ما أراه خيرًا له ، فاتخذتُ مِن الهوامش حقولاً أزرعُ فيها أفكارًا ، وميدانًا أُبارزُ فيه بكلمة الحق إيمانًا واحتسابًا باطلا كثرُ أنصارُه .

ومِن ثَم أهِيبُ بالقارئ أن لا ينصرِفَ عَن قِراءة الهوامشِ ، فخيرٌ له إن شاءَ الله تعالى أن يهتمَّ بالهوامش في هذا الكتاب ، اهتِمامَه بالمتن ، فإن في هذه الهوامشِ ما يَنفعُه .

---

(١) قلت هذا حتّى لا يقتدي بي هنا طلابُ الدراسات العليا في بحوثهم ، فيكتبون كما كتبتُ هنا .

وحرصتُ علَى أن أجعلَ بياني قريبًا من جمهرةِ القراء ، فـإنّي أخشَـى أن تمتدّ إلى هذا الكتابِ يدُ من ليسَ بطالـبِ علـمٍ ، فيعوقُـه شـيْءٌ مـن حزونـة البيان عن المضيّ في القراءة ، فأخسرُ صُحبته ، فتحاشيْتُ كثيرًا حُزونة البيان.

وظنّي أن هذا المبتغَى يجعلُ القارئ يغفرُ لنا ما صنعتُ مكرهًا غير بطلٍ.

والله تعالى هو المستعانُ وحده على طاعتـه علـى الوجـه الـذي يرضـيه ، فيُرضينا بفيضِ مَحبته ، ورعايته ، وحفظه ، وتقريبه لنا ، وتفضُّله علينا بستره الّذِي لا ينكشفُ لأحدٍ أبدًا من العالَمين في الدّنيا والآخرة .

إنّه ولِيّ ذلك والقادر عليه وهُوَ المُتفضَّلُ بِـه علـى مَـن يشـاءُ كَمـا يشـاءُ ومتَى شاء سبحانه وتعالى .

وصلّى الله وسلّمَ وباركَ على عبـدِه ونبِيّـهِ ورَسُـولِه الأمـين سـيّدنا مُحمـد وعلَّى آلِه وصحبِه وورثتِه من أهل العلم . والحمدُ لله ربّ العالمين .

تحريرًا في غرة من ذي الحجة ١٤٣٨هـ

الموافق

وكتبه

محمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

obeikandl.com